المحاضرة رقم: 03

الإعجاز الصوتي

من وجوه إعجاز القرآن الكريم إعجازه الصوتي، وذلك لما يقع فيه من تآلف، سواء في أصواته المشكلة للألفاظ أو في ألفاظه المشكلة لجمله، على نحو لا نجده إلا في النظم القرآني.

01-مفهوم التآلف الصوتي:

التآلف الصوتي عند اللغويين العرب القدامى هو " تعديل الحروف في التأليف "[1]، وهو يكون حينما يتجنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام، يقول الخفاجي" وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود"[2]، ويكون ذلك في الكلمة الواحدة، أو في اجتماعها مع أختها في الكلام، " تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج مترتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما"[3].

يذكر الرماني أن التأليف على ثلاثة أوجه متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى ومتلائم في الطبقة العليا، ومن هذا الأخير القرآن الكريم كله[4].

إن الكلمة وبحسب أصواتها التي تتألف منها قد تكون نغمة عذبة على السمع، أوقد تكون نغمة منكرة سيئة الوقع على الآذان، وذلك بمدى توفر مجموعة من العوامل تتعلق بتلاؤم

1 – أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:3، د ت، ص: 94.

2 – أبو محمد بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:01، 1402ه/1982م، ص: 60.

3 – أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط:03، 2008م، ص: 222.

4 – ينظر: أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 95.

مخارج حروف الكلمة، وعدد حروفها، وتناسق حركات هاته الحروف، وأيضا ملاءمة اللفظة لنوع الكلام، وكلمات القرآن الكريم كلها من النوع المتآلف، وتآلف الكلام فيه وصل إلى درجة الإعجاز[1]، ويكفي أن نتطرق إلى العامل الأول لأنه هو ما يعنينا في هذا المقام[2]:

02-تباعد مخارج الحروف أو تقاربها في الكلمة:

إن كان تباعد مخارج الحروف في الكلمة يؤدي إلى التنافر، وصعوبة النطق بها، فهذا ليس مطلقا، وإنما يكون كذلك إذا ما اجتمع مع التباعد عدم ترتيب المخارج المتباعدة، وتآلف الأصوات في القرآن الكريم مع تباعد مخارجها إنما يعود لورودها مرتبة على حسب هذه المخارج، ومن أمثلة ذلك قوله ﷻ ﴿ أَلَمْ﴾ في سورة الفيل؛ فحروفها متباعدة المخارج ومع ذلك فهي لا تثقل على اللسان، وذلك لأن مخارج هذه الحروف مرتبة من الداخل إلى الخارج، فالهمزة تخرج من أقصى الحلق، واللام من أدنى حافتي اللسان، والميم من بين الشفتين[3].

كما أن تقارب مخارج الحروف من أسباب ثقل نطقها وغرابة إيقاعها، وإنما يكون التلاؤم – كما ذكر الرّماني– بتعديل الحروف في التأليف، والمقصود به أن لا تكون بعيدة جدا أو متقاربة جدا، ومن أمثلة الثقل لتقارب المخارج كلمتا "الهعخع" و "مستشزرات" الواردتان في كلام العرب.

وهذا التقارب حاصل في القرآن الكريم، ولذلك كانت معالجته عن طريق أحكام التجويد؛ وذلك بإدغام الحروف المتقاربة أو قلبها أو إخفائها وذلك بالنظر إلى مدى تقاربها، وسيتم التطرق لهذه العوارض كما يلي:

أ- الإدغام:

لقد جرت عادة العرب على الإتيان بالإدغام في كلامهم العادي فهو ليس من الأحكام المختصة فقط بتلاوة القرآن الكريم، وذلك لما فيه من التسهيل والتخفيف في النطق.

- في اللغة:

1 – ينظر، هارون نوح معابدة، التآلف الصوتي في القرآن الكريم، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، مج:43، 2016، ص:331.

2 – لمزيد من الاطلاع، ينظر: هارون نوح معابدة، التآلف الصوتي في القرآن الكريم.

3 – ينظر: أبو محمد بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 87، 91.

جاء في لسان العرب: " دغم الغيثُ الأرضَ، يدغمها، وأدغمها: إذا غشيها وقهرها، ... والإدغام إدخال اللجام في أفواه الدواب، ... قال الأزهري: وإدغام حرف في حرف مأخوذ من هذا، والإدغام إدخال حرف في حرف"[1].

- في اصطلاح النحويين:

في شرح المفصل لابن يعيش: " أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد، يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة، فيصير الحرف الأول كالمستهلك لا على حقيقة التداخل والادّغام"[2].

والفرق بين التعريفين بيّنٌ، " فاللغويون يجعلون الإدغام شاملا لقلب الصوت إلى نظيره لإدخاله فيه... على حين يقصره النحويون على مجرد النطق بمثلين، ساكن فمتحرك، فعملية القلب منفصلة عن عملية الإدغام عندهم"[3]

- في اصطلاح القرّاء:

عرفوه بأنه: " اللفظ بحرفين حرفا كالثاني مشددا"[4]، وهذا التعريف على قصره مشتمل على عمليات الحذف والقلب والإدغام، فاللفظ بحرفين كالثاني يقتضي ضرورة حذف الحركة عند وجودها، ثم قلب الأول من مثل الثاني، وإلا فلن يكون الصوت مشددا[5]، والإدغام يكون واجبا أو جائزا أو ممتنعا[6].

والإدغام إنما جعل لأجل تيسير النطق بالكلمة، يقول جلال الدين السيوطي (ت911هـ): " ووجه طلب التخفيف"[7]، ويذكر القرطبي أن" العلة في ذلك إن اعتماد آلة النطق على موضع، وارتفاعها عنه، وعودها إليه ثم ارتفاعها عنه مستثقل يشبه مشي المقيد، فجعل

1 - ابن منظور، لسان العرب، مادة: دغم

2 - ابن يعيش، شرح المفصل، ج 10، ص:121.

3 - عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:1987،01، ص:122.

4 - النشر، ج:01، ص: 274.

5 - عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي،ص: 127.

6 - للوقوف على حالات الوجوب و الجواز والمنع، ينظر: مصطفى الغلاييني (1997)، ص.100.

7 - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: طه عبد الرؤوف سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د ط، د ت، ج:01، ص: 266.

اللسان أو غيره من المخارج ينبو عنهما نبوة واحدة طلبا للخفة، ولما في ذلك من السهولة على اللافظ"[1]، والإدغام يقع فيما يلي:

- التماثل:

اتفاق الحرفين مخرجاً وصفة، يعني يكونان حرفاً واحداً مكرراً، كالباء بالباء في قول الله ﷻ :﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَر﴾[2]، وكقول الله ﷻ:﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[3]، حيث نجد في الآية الأولى إدغام حرفي "الباء" ما يدل على السرعة التي طلب بها سليمان عليه السلام من الهدهد أن يطير بها إلى ملكة سبأ، وفي الثانية أن الكاف الساكنة الأولى قد أدغمت في الكاف الثانية فأصبحت حرفاً واحداً مشدداً، والإدغام يوحي بنقص أحرف الكلمة مما يدل على سرعة الموت في إدراك من قضى عليه الموت...

- التقارب:

تقارب الحرفين مخرجاً وصفة مثل "النون" مع "اللام"، أو تقاربهما مخرجاً فقط مثل "الدال" مع "السين" أو صفة مثل "التاء" مع "الثاء"، ومن هذا النوع تقارب " اللم" مع " الراء"، ومن ذلك قول الله ﷻ:﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4]، حيث تدغم اللام الساكنة في الراء المتحركة وينطق بهما راء مشددة، ويأتي هذا الإدغام ليبين ضرورة التعجيل في دعاء الله بزيادة العلم وإبراز قيمة العلم.

ومنه أيضا قول الله ﷻ:﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[5]، حيث تدغم اللام الساكنة في الراء المتحركة، وهذا ما يدل على سرعة رفع الله لعيسى عليه السلام وإنقاذه من اليهود.

-التجانس:

1 - عبد الوهاب بن محمد القرطبي، الموضح في التجويد، تح: غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط:01، 2000، ص: 140.

2 - الأعراف، 161.

3 - النساء، الآية: 78.

4 -طه، الآية:114.

5 - النساء، الآية: 158.

اتفاق الحرفيـن مخرجاً واختلافهما في الصفـات، كالثاء في الذال في قـول اللهﷻ: ﴿ يَلْهَث ذلِكَ﴾[1]، أو إدغام الدال في التاء، والذي يدل على قطعية بيان الرشد، وذلك في قول اللهﷻ:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2]، أو إدغام إدغام التاء في الدال، والذي يدل على سرعة استجابة الله لدعوة موسى وهارون على فرعون وملئه بالّا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وذلك في قول اللهﷻ:﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾[3]

ب- القلب (الإقلاب):

يجب القلب في حروف كثيرة ومواضع عدة، وليس استيعاب ذلك مما يستوعبه المقام ذلك[4]، وإنما المقصود هو ما يكون بتحويل النون الساكنة أو التنوين ميما، ويكون عند حرف واحد هو " الباء"[5]، ومن ذلك قول الله ﷻ:﴿ مِنْ بَعْدِهم﴾[6]، وقوله أيضا:﴿ صُمٌّ بُكْـم ﴾[7]، وذلك بقلب النون والتنوين ميما عند الباء، ولو تكلف قارئ إخراج النون مظهرة من غير قلب ولا إخفاء لأمكن ولكن بمشقة وفرط معالجة.

جـ-الإظهار والإخفاء:

الإظهار حكم يجب عند اجتماع حرفين تباعدا إما في المخرج أو في الصفة والأول منهما ساكن، كقول اللهﷻ: ﴿ مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى الله ﴾[8]، وقوله: ﴿ قَدْ خَلَتْ﴾[9].

والإخفاء هو حكم يجب عند اجتماع حرفين أخذا حالا متوسطة بين المباعدة والمقاربة، وسبق أحدهما بالسكون، ويكون في حروف خمسة عشرة، هي: ت، ث، ج، د، ذ، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ف، ق، ك. ومن ذلك قول الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿كُنْتُـــم﴾،

1 - الأعراف، الآية: 176.

2 - البقرة، الآية: 25.

3 - يونس، الآية: 89.

4 - ينظر: عبد الوهاب بن محمد القرطبي، الموضح في التجويد، ص: 174.

5 - ينظر: جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج:01، ص: 273.

6 - البقرة، 253.

7 - البقرة، 18.

8 - آل عمران، الآية: 52.

9 - البقرة، الآية: 34.

﴿ مِنْ ثَمَــرَةٍ﴾، ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي﴾ ، ﴿ يَنْظُرُون﴾ .

فالتشديد هو إدخال حرف في حرف، والإظهار هو قطع حرف عن حرف، والإخفاء هو اتصال حرف بحرف.

03-التآلف الصوتي في الحركات:

تجري الحركات في الوضع والتركيب مجرى الحروف نفسها، فيما هي له من أمر الفصاحة، فيمهد بعضها لبعض ويسانده، ولا نجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مجارية لها في النظام الصوتي، "حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ،... فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة"[1]

ويضرب الرافعي مثالا لذلك بلفظة " النُّذُر " والتي هي جمع " نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، فضلا عن جسأة هذا الحرف وثقله على اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، ولكن لنتأمل موقعه من القرآن الكريم، فحين يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾[2]، يقول الرافعي: " أنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حسن السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال " لقد"، وفي الطاء من " بطشتنا"، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو " تماروا" مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد،..." ثم يضيف "[3] وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت

1 – مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط:01، 2004م، ص: 181.

2 – القمر، الآية: 36.

3 – مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 182.

مصيب من كل ذلك عجبا في موقعه والقصد منه"[1]، فهي إنما طريقة في النظم تفرد بها القرآن الكريم.

1 – المرجع نفسه، نفس الصفحة.